بشار والمرأة

[١]

العين هى الأداة الأولى والكبرى للإحساس بالجمال، والالفتات إليه والإحاطة بمعانيه. وليس يستوى أن يكون للمرء، وأن لا يكون له، عينان. ولهذه الجارحة عمل يمتنع إذا تعطلت. ولا مفر من أن يحدث كف البصر أثراً فى مزاج الإنسان وتفكيره وإحساسه. فما يبقى للمكفوف من وسائط الإحساس بالجمال وإدراك معانيه سوء السمع واللمس والشم، وهى أقل من العين غناء إذ كانت العين أوثق اتصالا بالعقل حتى لترى أكثر المجازات فى هذا الباب مستمدة من عملها وإحساسها. والعقل حتى لترى أكثر المجازات فى هذا الباب مستمدة من عملها وإحساسها. والعقل عنها أفهم، وبها أقوى وأقدر. وإذا شابه ما يقول الكفيف فى الجمال وما يصف به شعوره، كلام البصير ووصفه، فإن هذا لا يكون على الأرجح، إلا تقليداً، وعلى السماع، وبمقدار ما أشربت نفسه من روح اللغة وأساليب التعبير فيها. ولا نكران أن الجمال معنى كما هو منظر، وعسى أن يكون معنى أكثر مما هو منظر. وغير مردود أن للخيال فى تصور هذا المعنى وإدراكه، عملا كبيراً، ولكن الخيال إنما يحلق بجناحين من الحقيقة لا من الوهم. والنظر حاسة "اجتماعية" ليس أعون منها على التصور والإحساس، ومضاعفة الشعور وتقويته. ولا معدى عن وجود فرق ما، بين ما يفهمه كفيف من معنى الجمال، وما يفهمه بصير لا تنقصه هذه الجارحة التى لا يمكن أن تعد زيادة لا لزوم لها ولا مزية بها.

وقد كان بشار يدرك هذا ولا يكابر فيه. فقد كان لا ينفك يذكر فى

شعره وكلامه أنه ضرير ويقول إنـه عمة جنينًا، ويفسر للناس كيف يحب من لا يرى فيقول:

يا قوم "أذنى" لبعض الحـى عاشقة

والأذن تعشـق قبل العين "أحيانا"

قالوا بمن لا ترى "تهذى" فقلت لهم

الأذن كالعيـن توفى القلب ما كانا

وقد أحسن الاحتياط ووفق فى التعبير، فقال إن أذنه هى العاشقة، وأن هذا ليس ببدع فقد تسبق الأذن العين "أحيانا" فتكون هى المجاز إلى القلب. وتأمل قوله إن الناس نسبوه إلى "الهذيان" بمن لا يرى. وما أرى أصلح أو أدق من هذا اللفظ ولا أحق منه بموضعه، فما هو إلا ضرب من الهذيان مهما أولتـه، وإلا لغط بما ليس مدركـا على وجه صحيح، أو على الوجـه الذى يفهمه البصراء.

وكرر هذا الرد والاحتجاج فقال:

وكـاعب قـالت لأترابهـا ... يا قـوم مـا أعجب هذا الضرير

هل يعشق الإنسـان من لا يرى؟ ... فـقـلت والدمع بـعـينى غـزير

إن تك عـينى لا ترى وجـهـهـا ... فـإنهـا قـد صورت فى الضمـير

وقوله "والدمع بعينى غزير" يشى بالحسرة على ما يفوته، والإحساس الوجيع بما ينقصه إنها صورت فى الضمير، لا يفيد شيئا، إذ كيف صورت؟ وهل تكون الصورة الحاصلة - إذا كانت ثم صورة - إلا ملتاثة ما دامت بغير

ألوان وسمات؟ وهل يمكن أن يتجاوز الأمر فيها الإحساس العام ما دام ليس عنده ما يقيس عليه أو يؤلف منه الصورة؟

وقال:

أن سليمى، والله يكلؤها كالسكر تزداده على السكر

بلغت عنها شكلا فأعجبنى والسمع يكفيك غيبة البصر

فهو يشبه إحساسه بها بإحساسه بالسكر، أى بالنشوة الحاصلة، ويقول إنه بلغ عنها شكلا فأعجبه الوصف المألوف للمحاسن والمفاتن وما يلهج به الناس من صور الجمال، أما أن السمع يكفى غيبة البصر فحصيح، فما ثم حيلة يعرفها المضطر إلا الاكتفاء والذى لا يستطيع أن يدرك إلا اجمالا، لا على وجه الدقة، ما حرمة بغيبة البصر وذهابه.

وقال:

عجبت فطمة من نعتى لها أيجيد النعت مكفوف البصر؟

ووجه العجب هو من وصف ما لا يرى، وإنه لعجيب فى ظاهره، ولكنه لا موجب للعجب إذا تذكرنا أنه يجرى فيه على المألوف الشائع فى أوصاف الجمال.

وقال:

يزهدنى فى حب عبدة معشر قلوبهم فيها مخالفة قلبى

فقلت دعوا قلبى وما اختار وارتضى فبالقلب لا بالعين ذو اللب

وما تبصر العينان فى موضع الهوى ولا تسمع الأذنان إلا من القلب

وصحيح أن الحب يكون بالقلب، وأن الصـور تحصل فى الذهن، وغير منكور أن فتنة الحب تزيغ البصر، وقد صدق من قال إن:

عين الرضى عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدى المساويا

ولكن هذا لا يخلو من مغالطة فما قال أحد إن المرء يحب بعينيه، وإنما الذى قيل ويـقال هو أن العين هى البـاب الواسع إلى القلب، والعـدسة التى تنقل صور الجمال فى مظاهره المختلفة أو كما قال البحترى:

وما كان حظ فى ذاك مذهبى ولكن رأيت العين بابًا إلى القلب

وقال:

أمامة قد وصفت لنا بحسن وأنا لا نراك فالمـــسينا

وقد قال هذا البـيت فى مجلس كان يرجو أن يفـوز به بحظ جزيل من اللهو، فاللمس بسبيل مما كـان يطمع فيه ويحلم به. ولكنه جل أيضا على أنه يعتمد - فيـما يعتمد عليه - على اللمس ليشعـر بالجمال، ولا تنس قوله إن الجـارية وصفت له بحـسن فـهو يريد أن يلمس ويجـس ويتحـسس ليطابق. والجمـال منظر ومعان وتعـبير. والعـين أقدر من السمـع واللمس على إفادة الاستـمتاع بـه لأنها هى التى تعيـن على تأليف الصور الذهنيـة. وهى صور تتألف من أشتات أخرى علقت بالذاكرة وحصلت بالنظر.

وإليك قصيدة ابن الرومى فى وحيد المغنية نسـوقها لأنا لا نعرف قصيدة أخرى فى لغـة العرب - وقد كـدنا أو فى سواها - أجمع منهـا لمعانى الحب والجمال. قال:

غـادة زانهـــا من الغـصـن قـد ... ومن الظـبى مـقلتـــان وجـيـد

وزهاها من فـرعـهـا ومن الخـد ... ين ذاك الســـواد والتـــوريد

فـهى برد بخـــدها، وســلام، ... وهى للعـاشـقين جـهـد جـهـيـد

مـا لما تصطليـه من وجـنتـيـهـا ... غـيـر تـرشـاف ريقـهـا تبـريد

وغـرير بـحـسنهـا قـال صـفـهـا ... قلـت: أمـــران: بـين، وشـــديد

يسـهل القـول إنها أحـسن الأشـيـ ... ـاء طرا، ويـصـعب التـــحـديد

تتـــجلى للنـاظرين إلـيـــهـــا ... فـشـقى بحـسنهـا وسـعـيـد

ظبـيـة تسكن القلوب وترعـاها ... وقـــمـــرية لهـــا تغـــريد

تتـــغـنى، كـــأ،هـا لا تغـنى، ... من سكون الأوصـال، وهى تجـيـد

لا تراهـا هنـاك تجـحـظ عـــين ... لـك منهـــــا، ولا يـدر وريـد

من هـدو، وليس فـيـه انقـطاع، ... وســجـــو، ومـا بـه تبلـيـد

مـد فى شـأو صـوتهـا نفس كـاف ... كـأنفـاس عـاشـقـهـا مـديد

وأرق الـدلال والـغـنـج مـنـه ... وبراه الـشـجى فـكاد يبـيـد

فـتـراه يمـوت طـوراً ويحـيـا ... مـسـتلذ بـسيـطه والتـشـيـد

فـيه وشـيى، وفـيـه حلى من النغم ... مـصـوغ، يخـتل فـيـه القـصـيـد

طاب فـوهـا ومـا ترجع فـيـه ... كل شيء لـهـا بذاك شـهـيـد

وحـسان عـرضن لى، قلـت مهـلا ... عن وحـيـد، فـحـقـهـا التـوحـيـد

حـسنها فى العـيـون حسن جـديد ... فلهـــا فى القـلوب حب جـــديد

ضلة للفؤاد يحنو عليها وهى تزهو، حياته، وتكيد
سحرته بمقلتيها فأضحت عنده، والذميم منها حميد
خلقت فتنة، غناء وحسنًا ما لها فهما جميعًا نديد
فهى نعمى يميد منها كبير وهى بلوى يشيب منها وليد
لى حيث انصرفت منها رفيق من هواها، وحيث حلت قعيد
عن يمينى وعن شمالى وقد وخلفى، فأين عنه أحيد؟
سد شيطان حبها كل فج إن شيطان حبها لمريد
ليت شعرى إذا أدام إليها كره الطرف، مبدى ومعيد
أهى شىء لا تسأم العين منه؟ أم لها كل ساعة تجديد؟
بل هى العيش لا يزال متى استعرض يملى غرائبًا ويفيد
منظر، مسمع، معان من اللهـ ـو، عتاد لما يحب عتيد

ويستطيع أكمه كبشار لم ير الدنيا إلا سماعًا، أن يذكر معظم ما فى هذه القصيدة الفريدة، وأن يشبه قدها بالغصن، ومقلتها وجيدها بمقلة الظبى وجيده، وأن يذكر سواد شعرها غناءها بسجع القمارى ويصف صوتها وقوته وحلاوته، وهدوه وسجوه، ورقته، وطول نفسها، ولا ينسى الوشى والحلى المصوغ أيضًا - كل هذا فى وسعه. ولكنه لا يستطيع أن يصف حسنها فى العين وتجدده على النظر، وكيف يتجدد ولا يسأم، ولا أن يتصور كل هذا "العتاد" مجتمعًا. بل لا يستطيع أن يفطن إلى جمالها وهى تغنى، وأوصالها ساكنة، فلا عين تجحظ، ولا وريد يدر، فإن هذا لا سبيل إليه إلا بالنظر

والمقارنة، وهو يفهم تشبيه حسنها الذى لا يزال يتجدد فى رأى العين وإحساس القلب، بالعيش الذى لا يزال يعرض الغرائب، ولكنه يصعب أن يخطر له هذا المعنى من تلقاء نفسه، لأنه لا يستطيع أن يفطن إلى تجديد الجمال دون أن ينهه إلى ذلك منبه.

وليس فى شعر بشار ما يدل على أنه استطاع أن يتجاوز نطاق السمع واللمس والشم فى غزله، فهو يقول مثلا:

وكأن رجع حديثها قطع الرياض كسين زهرا

وأولى به أن يكون تشبيها لأنفاسها وطيبها، وإن كان مقبولا بمعنى أن نسيم الرياض ينعش الجسم ويحيى النفس، فما لمثل بشار قدرة على إفادة المتعة بالرياض إلا بأرجها، وهى بغير ذلك سوء والصحراء.

ويشبه ذلك قوله:

وحديث كأنه قطع الروض وفيه الصفراء والحمراء

وقوله:

"كأن حديثها ثمر الجنان"

وقوله:

"ولهم مبسم كثغر الأقاحى"

وقوله:

"وبكر كنوار الرياض حديثها تروق بوجه واضح كلام"

وقد تعلق بشار بكل ما تفيده حواسه الباقية له، وبالغ فى إبراز المعانى التى تدور على الحس، كقوله:

ولقد تعرض لى خيالكم فى القرط والخلخال والقلب

وقوله:

وخـــذى مـــلابس زينة ومصبغات فهو أفخر

وإذا دخلت تقنعى بالحمر، أن الحسن أحمر

ويقول الجاحظ بعد أن أورد بيت ذى الرمة:

حوراء فى دعج، صفراء فى نعج كأنها فضة قد مسها ذهب

"إن المرأة الرقيقة اللون يكون بياضها بالغداة يضرب إلى الحمرة، وبالعشى يضرب إلى الصفرة ولذلك قال الأعشى:

بيضاء ضحوتها، وصفراء العشية، كالعرارة

وقال بشار:

فإذا دخلت تقنعى بالحسن إن الحسن أحمر

وهذان أعميان قد اهتديا من حقائق الأمور إلا مالا يبلغة تمييز البصراء. ولبشار - خاصة - فى هذا الباب ما ليس لأحد"

على أن للأعشى وبشار ثالثا بذهما وأغنى به المعرى، وهو القائل:

رب ليل كأنه الصبح فى الحسـ ـن وإن كان أسود الطيلسان

قد ركضنا فيه إلى اللهو حتى وقف النجم وقفة الحيران

فكأنى ما قلت، والبدر طفل وشباب الظلماء فى عنفوان

ليلتى هذه عروس من الزنـ ـج عليها فلابد من جمان

وكـأن الهـلال يهـوى الثـريا فـهـمـا للوداع مـعـتنقـان

وسـهـيل كـوجنة الحـب فى اللو ن المحب فـى الخـفـقـان

يسرع اللمح فى إحمرار، كما تسـ ـرع فى اللمح مـقـلة الغـبطان

ثم شاب الدجى فخاف من الهجر فـغـطى المشـيب بالزعـفـران

ومن قول بشار أيضا:

وتخـال مـا جـمـعت عـليـه ثـيـابهـا ذهـبـا وعطـرا

باكـرن عـطر لـطيـمـة وغـمـسن فى الجـادى غـمـسا

عـبـيـدة مـالك مـسلوبة وكنـت مـعـطرة حـاليـة

كـأنهـا صـورت من مـاء لؤلؤة فكل جـارحـة وجـه بمرصـاد

فـشربت غـيـر مـباشـر حـرجـا برضـاب أشنب بارد عـذب

ولاحظ الأستاذ العقاد أن بشار "ينقل الوصف أحيانا مما يرى إلى ما يحس. فيصف الهوى والجمال كأنهما شيء (مصبوب) على القلب والجسم كقوله:

إذا نظرت "صبت" عليك صبابة وكادت قلوب العاشقين تطير

وقوله:

"صببت هواك على قلبه فضاف وأعلن ما قدكتم

وقوله:

من فتاة "صب" الجمال عليها فى حديث كلذة النشوان".

وهى ملاحظة سديدة

ومن قوله أيضا

وغـــادة ســـــوداء بـراقـــة كـــــالماء فى طيـب وفى لـبن

كـأنـهـا صـيـــغت لمن نالـهـا من عنبـر بالمسك مـعـجـون

* * *

[٢]

والأمر فيما يتعلق ببشار على حد قول سوسنه الموسوس بعد أن كف بصره، وكان يوصف بأنه من عقلاء المجانين.

حمى العمى حظ عيني فاجعل لقلبى حظا
فقد جعلت بنانى عينا، وقرصى لحظا
فأذن خدك منى ولا تكن بى فظا

ولو وضعنا "لحسى" فى موضع "لقلبى" من البيت الأول لكان أصدق. فما كانت المرأة عند بشار إلا أنثى يصبو جسد الرجل إلى جسدها، وأداة يرضى بها غريزته. وندر أن يرتقى إحساسه بها إلى المعانى النفسية، وكان لا يفرغ من التشبب بالنساء، أو على الأصح إلى المعانى النفسية، وكان لا يفرغ من التشبب بالنساء، أو على الأصح من وصف ما يشتاق إليه منهن، ويطلبه عندهن من اللذات، إلا ليذكر فحولته وتنزيه، فمن ذلك ما حكوه من أنه علق امرأة وراسلها يسألها أن تواصله فقالت لرسوله "أى حظ لى فيك أو لك فى وأنت أعمى لا ترانى فتعرف حسنى ومقداره، وأنت قبيح الوجه فلاحظ لى فيك، فليت شعرى لأى شيء تطلب وصال مثلى؟" وهى فظاظة ولاشك، ومظهر غرور بفتنة الجسد وقلة فطنة إلى ما وراءه، وقد ورد عليها بشار نمسك عن إيراده وإن كان لائقًا بقلة أدبها. وحسبنا أن نقول إنه أهمل فى رده كل ما يمكن أن يتفاضل به الرجال، ولم ينظر إلا إلى الجانب الحيوانى الصريح الذى يتساوى عنده الناس والبهائم. وأخلق بالبهائم أن ترجح على الإنسان من هذه الناحية.

ولا يخرج بشـار عن دائرة الحواس حين يتخـيل حبيبـته - إذا صح أنه كانت له حـبيـبة مـعينة - ومن ذلك قولـه الذى من قبل "ولقـد تعرض لى خيالكم" - والمرأة عنده أنثى تشتهى وتنال ولا تستعصى على الطالب.

قـاس الـهـمـوم تنـل بهـا نجـحـا والليل، إن وراءه صـبـحـا

لا يوئسنك من مـخـبـأة قـول تغـلظه وإن جـرحـا

عـسـر النسـاء إلى مـيـاسـرة والصـعب يمكن بعـد مـا جمـحـا

وهو القائل أيضا:

لا أبالى من ضن عنى بوصل إن قضى الله منه لى يوم جود

وكان يعمل بمـا يعلم. وحكايته مع أمامة مـشهورة، وكان يبـعث إليها بغلامة يراودها فتمتنع. فلما أضجرها بإلحاحـه عرفت زوجها فقال لها أجيبيه وعديه أن يجئ إلى هنـا. ففعلت. وجـاء بشار مع امرأة نفـذتها إمامـه إليه. فدخل وزوجهـا جالس وهو - أى بشار - لا يعلم، فجعل بشـار يحادثها ثم قال: "إمامة قد وصفت لنا بحسن وإنا لا نراك فالمسينا"

فأخذت يده فدفعتها إلى زوجها ففزع بشار ووثب وقال:

علـى أليـة مـا دمـت حـيـا أمـسك طـائعـا إلا بعـود

ولا أهـدى أنت فـيـهـم سـلام اللـه إلا من بعـيـد

حتى على لسان حمار له زعم أنه مات لا يتناول إلا هذه المعانى الدائرة على الحسن، وإن كان هذا معقولا من حمار

سـيـدى خـذ بى أتانـا عنـد باب الأصـبـهـانى

تيممتني بينان وبدل قد شجاني
تيممتني يوم رحنا بثناياها الحسان
وبغنج ودلال سل جسمي وبراني
ولها خذ أسيل مثل خد الشيفراني
فلذا مت. ولو عشـ ـت إذا طال هواني

وله رأى فى شعر النساء يوافق تصويره لهن قال: "ما من شعر تقوله امرأة إلا وفيه سمة الخنوثة" وهذا ما ينبغى أن يكون والا فما هى بامرأة. ولبشار حكاية ليس أنم منها على انحصار الإحساس بالمرأة فى الرغبة الجنسية وانتفاء الاهتمام - أو ضعفه - بما وراء ذلك، والعجز عن إدراكه. ولكنا لا نستطيع أن نسوقها لشناعتها - فليبحث عنها من شاء فى أخباره المبعثرة.

ومن قوله أيضا:

ودعجاء المحاجر من معد كأن حديثها ثمر الجنان
إذا قامن لمشيتها تثنت كأن عظامها من خيزران

فحديثها يشبه ما يؤكل من ثمر الخلد، وعظامها لينة لمن يجسها ويلمسها فهى تثنى كالخيزران.

ومنه

حوراء إن نظرت إليـ ـك سقتك بالعينين خمرا
وكأن رجع حديثها قطع الرياض كسين زهرا
وكأن تحت لسانها هاروت ينفث فيه سحرا

وتخـال مـا جـمـعت عـليـه ثـيـابهـا ذهـبـا وعطـرا
وكـأنهـا بـرد الشـراب صـفـا ووافـق منـه فطـرا
يا ليـتنى كنت تفـاحـا مـفـلجـة أو كنت من قضب الريحان ريحانا
حتى إذا وجـدت ريحى فأعـجبـها ونحن فـى خلوة، مـثلت انسـانا

ومنه فى جارية مغنية اسمها فاطمة، يقول على لسانها:

أمـتى بـدد هـذا لـعـبى ووشـاحـى حله حـتى انتـثـر
فـدعـينى مـعـه يـا أمـتى علـنا فـى خلوة نـقـضى الـوطر

ثم يقول:

بـأبى والـله مـا أحـسنـه دمع عـين غـسل الكحـل فـثـر
أيهـا النـوام هبـوا ويحـكم وسلونى الـيـوم مـا طعم السـهـر

ومنه:

تنـاول خـوداً هضـيم الحـشى من الحـور مـحطوطة عـاليـة

ومن قوله من قصيدة مشهورة:

حـسبى وحـسب الـذى كلفت به منى ومـنه الحـديث والـنظـر
أو قـبله فـى خـلال ذاك، ومـا بـأس إذا لـم تحـل لـى الأزر
أو عـضـة فى ذراعـهـا، ولهـا فـوق ذراعى مـن عـضـهـا أثر
أو لمسـة دون مـرطهـا بـيـدى والبـاب قـد حـال دونه الستـر
والسـاق بارقـة مـخـلخلهـا أو مص ريق وقـد عـلا البـهـر

واسترخت الكف للعراك وقا ... لت ايه عنى، والدمع منحدر

انهض فما أنت كالذى زعموا ... أنت وربى مغازل أشر

قد غابت اليوم عنك حاضنتى ... والله لى منك، فيك، ينتصر

يارب خذذ لى، فقد ترى ضرعى ... من فاسق جاء ما به سكر

أهوى إلى معضدى فرضضه ... ذوقوه، ما يطاق، مقتدر

ألصق بى لحية له خشنت ... ذات سواد كأ،ها الأبر

حتى علانى وأسرتى غيب ... ويلى عليهم لو أنهم حضروا!

أقسم بالله لا نجوت بها ... فاذهب فأنت المساور الظفر

كيف بأمى إذا رأت شفتى ... أم كيف إن شاع منك الخبر

قد كنت أخشى الذى ابتليت به ... منك، فماذا أقول يا عبر

قلت لها عند ذاك ياسكنى ... لا بأس، إنى مجرب خبر

قولى لها: بقة لها ظفر ... إن كان فى البق مثلها ظفر

وهى قصيدة تمثل نزعة أصدق تمثيل وأدقه. والمرء يقرؤها فيخيل إليه أن هذا بيت من بيوت الدعارة السرية. والصورة كلها صورة فتاة "بنت عشرين بكر" - فقد كان بشار يحبهن صغيرات كلها صورة فتاة "بنت عشرين بكر" - فقد كان بشار يجبهن صغيرات - بضة لينة من حوريات الأمصار المستراد لأمثالهن يغازلها ويلاعبها ويقارصها ويهم بها رجل قوى متين الأسر خشن الشعر وهى ذليلة مطواع بين يديه، نقر له، وتعترف بقوته ويلذ لها - وإن كانت عينها تذرى الدمع - أن تلهج باقتداره عليها، ومساورته لها، وظفر

بهـا، ولا يحيـرها إلا عـضـة لا تدرى كيف تخـفى أثرها عن أهـلها حـين يعودون.

وليس بشار بدعا بين العميان، فقد كان أبو العلاء وقورا متشما متشائما رافضا للحـياة عفا - على خلاف بشـار - وكان يزدرى المرأة ويذهب إلى أن عفتها لا تضمن، وإن أقل مـا تجنيه، التبرج، ومن الواجب أن يداريها الرجل الذى يعايشها، ويسترضـيها، ويتقى غضبها ويراقبها، فكثـيرا ما تظهر الغيرة على بعلها وتسود عيشه من أجل ذلك، بينما هى تسقى الخليل ريقاها.

ومن قوله:

لعـمرك مـا غـادرت مطلع هضبـة من الفكر إلا وارتـقـيت هضـابهـا
أقل الذى تجـنى الغـوانى، تبـرج يرى العين مـنها حليهـا وخضـابها
فان أنت عاشرت الكعاب فصادها وحاول رضـاها واحذرن غضـابها
فكم بكرت تسـقى الأمـر حليلهـا من الغار، إذ تسقى الحليل رضابها
وإن جـمال العـيش مـا علقت بهـا يد الحى، إلا وهى تخشى انقضابها

وكان يحـول سخطه على الحـياة إليـها، ويصب نقمـته على رأسـها، ويقلب ما يكبحه من اشتهاء نفسه لها ورغبة جسمة فيها، فيجعله تهالكها منها على اللذات، واستهـتار فى ارضاء الشهوات، ويسلبهـا كل ما عدا ذلك ولا يراها إلا أداة نسل، ونطية شهوة ذلول، فهى عنده حية سامة.

وإنما الخود فى مساربها كربة السم فى تسربها

وما فضل النساء؟ ولأية غـاية يطلبن الرجل؟ أليس النسل؟ وما خيرهن وهى يطلبن الازواج والزينة ولا ينفعن فى حرب.

صحبنك فاستفدت بهن ولدا أصابك من إذاتك بالسمات

ومن رزق البنين فغير ناء بذلك عن نوائب مقتمات

فمن ثكل يهاب، ومن عقوق وأرزاء يجئن مصممات

وإن تعط الأناث فأى بؤس تبين فى وجوه مقسمات

يردن بعولة ويردن حليا ويلقين الخطوب ملمومات

ولسن بدافعات يوم حرب ولا فى غارة متغشمات

وقد يفقدن أزواجا كراما فيها للنسوة المتأيمات

وما النساء عنده إلا:

فوارس فتنة، أعلام غى لقينك بالأساور معلمات

ولا يغرنك عكوفهن على المصلى:

وليس عكوفهن على المصلى أمانا من غوارر مجرمات

والمغزل أولى بهن من القلم:

ولا تحمد حسانك أن توافت بأيد للسطور مقومات

فحمل مغازل النسوان أولى بهن من اليراع مقامات

وليكن أخذهن التلاوة عن عجوز مهتمة

ليأخذن التلاوة عن عجوز من اللائى فغرن مهتمات

يسبحن المليك بكل جنح ويركعن الضحى متأثمات

فما عيب على الفتيات لحن إذا قلن المراد مترجمات

وإذا احتاج الأمر إلى معلم، فينبغى أن لا تدنو الفتاة حتى من رجل ضرير إلا أن يكون هرما هما مرتعش اليدين أبيض اللمة.

ولا يدين من رجل ضرير ... يلقهن آيا محكمات

سوء من كان مرتعشا ... ولمته من المتشغمات

وخير للشيخ الفقير أن لا يتزوج منعمة، فإن الفقر والشيخوخة بابان إلى العظائم. والشيب معتفر مع الغنى إذا كانت "قوى الرجل موفورة" وفى زوجة واحدة كفاية

ولا يتأهلن شيخ مقل ... بمعصرة من المتنعمات

فإن الفقر عيب، إن أضيفت ... إليه السن، جاء بمعظمات

ولكن عرس ذلك بنت دهر ... تجنبت الوجوه محممات

ويغتفر الغنى وخطا برأس ... إذا كانت قواك مسلمات

وواحدة كفتك فلا تجاوز ... إلى أخرى تجئ بمؤلمات

ويختم هذه النصائح بأنها من خبير مجرب شفيق

فهذا قول مختبر شفيق ... ونصح للحياة وللممات

والرجال لا يؤتمنون على النساء:

وأمن على المال الرجال ولا ... تأمنهمو أبدا على الخرد

وإذا بلغ الغلام العاشرة فاحجب النساء عنه، ولا تدخله عليهن فانهن حبال غى بهن يضيع الشرف.

إذا بلغ الوليد لديك عشرا فلا يدخل على الحرم الوليد

فان خالفتنى وأضعت نصحى فأنت، وأن رزقت حجى، بليد

إلا أن النساء حبال غى بهن يضيع الشرف التليد

واضرب على المرأة فإن ارخاء العنان لها يغريها بركوب مالا يحمد

شر على المرأة من حمامها ارسالك الفاضل من زمامها

ومشيها تضرب فى أكمامها تفوح ريا الطيب من أمامها

زائرة المسجد فى المامها تأثم، والخيبة فى ائتمامها

وريقها الشروب فى صمامها سمام أفعى بأن من سمامها

أن نزلت عصماء من سمامها فلا سقاها الطل من غمامها

إذا احتوى الريم على رمامها لزومها البيت مع اهتمامها

حتى يجيها الوفد من حمامها وحملها المغزل فى اتمامها

أوفى بما تعقد من زمامها

وأخف ما وصفها به أنها خيالات ولعبة:

وما الغوانى الغوادى فى ملاعبها إلا خيالات وقت اشبهت لعبا

وننتقل من شعره إلى نثره. ومن كلامه فى الدنيا وأوصابها ومتاعبها إلى تخيله الساخر للآخرة إلى نثر. ومن كلامه فى الدنيا وأوصابها ومتاعبها إلى تخيله الاسحر للآخرة ونعيمها الخالص الخالد، ووصفه للحور العين فى الجنة وهن على ضربين: ضرب خلقه الله فى الجنة لم يعرف غيرها، وضرب نقله الله من الدار العاجلة لما عمل من الأعمال الصالحة. وهو يجعل ابن القارح

يلتقى باثنتين من الضرب الثانى، ويقبل على كل واحدة منهما يترشف رضابها فيهنجيه ذلك إلى ما به ويقول "إن امرأ القيس لمسكين! مسكين! تخترق عظامه فى السعير وأنا أتمثل بقوله:

كأن المدام وصوب الغما م وريح الخزامى وصوب القطر

يعمل به برد أنيابها إذا غرد الطائر المستحر

فتستغرب أحداهما ضحكا فيقول "مم تضحكين؟" فتقول "فرحا بتفضل الله.. أتدرى من أنا؟.. أنى كنت فى الدار العاجلة أعرف بحمدونة وأسكن فى باب العراق بحلب، وأبى صاحب رحى، وتزوجنى رجل يبيع السقط فطلقنى لرائحة كرهها من فى، وكنت من أقبح نساء حلب. فلما عرفت ذلك زهدت فى الدنيا وتوفرت على العبادة. وأكلت من مغزلى ومردنى فصيرنى ذلك إلى ما ترى"

ودع ما فى هذا التهكم، وتأمل قوله إنها ما زهدت فى الدنيا ولا انصرفت عن لذات الحياة إلا بعد أن عرفت أنها بخراء دميمة يصدف عنها الرجال، ولولا ذلك ما صارت عابدة زاهدة.

وتقول الأخرى "إننى كنت توفيق السوداء التى كانت تخدم فى دار العلم ببغداد على زمان أبى منصور محمد بن على الخازن. وكنت أخرج الكتب إلى النساخ"

فهذه أيضا كانت سوداء شوهاء مزهودا فيها.

وانظر إقباله الشديد على ترشق الرضاب وشرهه فى ذلك. واجعل بالك إلى صرحته "إن امرأ القيس لمسكين، مسكين" وتكريره هذا اللفظ وما

يشعرك به ذلك من تحرق الرجل الذى يكبح نفسه حتى إذا أمكنته الفرصة اندفع كالمنفجر. ولا تنس تعلقه بالرضاب، والتفاته إلى رائحة الفم، واختصاصه ذلك بالذكر.

أما الحور التى خلقها الله فى الجنة ولا تعرف الدنيا فتخرج لابن القارح من سفر جلة أو رمانة، جارية "حوراء عيناء" فيسجد لله اعظاما، ويخطر فى نفسه وهو ساجد إن تلك الجارية، على حسنها، ضاوية (نحيفة) فيرتفع رأسه من السجود وقد صار من ورائها ردف يضاهى كثبان (تل) عالج.. فيهال من قدرة الله ويقول "يا رازق المشرفة سناها، ومبلغ السائلة مناها، والذى فعل ما أعجز وهال، ودعا إلى الحلم الجهال، أسألك أن تقصر بوص هذه الحورية" فيقال له أنت مخير فى تكوين هذه الحورية كما تشاء. فيقتصر من ذلك على الإرادة.

وهنا أيضا تهكم - كما فى الرسالة كلها - ولكنه مشوب بما يدل على الالتفات إلى الجسد، وإلى مواضع معينة منه، التفاتا كان المعرى يزجر نفسه عنه فى حياته احتشاما ونقمة.

والخلاصة أنه يسئ بالمرأة الظن كبشار، ولا يرى لها عفة يحفظها عليها دين أو تأديب، ولا يعتدها إلا ملهاة وغواية، ولا ينظر إلى ما وراء أنوثتها وضعفها، ولا يغتفر ما تحملها عليه طبيعتها، وإن كان مزاجه قد ذهب به مذهبا خلاف مذهب بشار. والنظرتان متفقتان فى النهاية، وصادرتان عن أصل واحد، وإن كانتا مرسلتين من نافذتين متباعدتين، وإنك لتحس مرارة الحرمان وألم الاضطرار إلى الكف عن التماس الملاذ، فى شعر أبى العلاء، كما قطالعك من شعر بشار حيوانية التسور إلى اللذائذ الحسية. وهو فرق

أوجده اختلاف المزاج وتفاوت العقل. والعمى فى كلا الرجلين علة أولى.

وقد كان أبو العلاء، كبشار، شديد الإحساس بعماه، وإن له لهذا البيت:

إذا أمر أعمى فارحموه، وأيقنوا سوان لم تكفول أن كلكم أعمى

وهذين:

أرانى فى الثلاثة من سجونى فلا تسأل عن الخبر النبيث

لفقدى ناظرى، ولزوم بيتى وكون النفس فى الجسم الخبيث

وذلك حسم المتأمل.

* * *

أنت الـذى تنـزل الأيام منـزلهـــا وتنقل الـدهر من حـال إلـى حـال

ومـا مددت مـدى طرف إلى أحـد إلا قـــضـــيت بأرزاق وآجـــال

فطلبه المأمون واستحل دمه بما كفـر وأشرك، فضلا عن تفضيله أبا دلف على العرب كلهـا وفهم قريش وبيت الخلافة، فـأمر فاستل لسـانه من قفاه، ويقال بل هروب ولم يزل مـتواريًا منه حـتى مات ولم يقدر عليـه. وكان من أبناء الشيعة الخراسانية ومن أهل بغداد، فهـو قريب شبه ببشار، ولكنه استنفد شعره - أو معظمه - فى المدح. فليس من الهين أن نعقد بين الرجلين مقارنة تستحق الذكر.

على أن له هذه الأبيات، بعد انقضاء شهر الصوم:

عللانـى بصـفـو مـا فـى الدنان واتركـا مـا يقـوله العـاذلان

واسبـقـا فـاجـع المنيـة بالعـيش فكـل علـى الجـديديـن فـان

وهو يشبـه قول بشـار أن العيش فـرص، ودعوته أصدقـاءه أن ينتهـبوا العيش انتهابًا.

عـلالانى بشـرية تذهب الهـ ـم وتنفى طـوارق الأحـزان

والقـيـا فى مسـامع سـدها الصـو م رقى المـوصل أو دحـمـان

قـد أتـانا شـوال فـاقـتبل العـيـ ـش واعـدى نسـرًا على رمـضـان

نعم عـون الفـتى عـلى نوب الدهـ ـر سـمـاع القـيـان والعيـدان

وكـؤوس تجـرى بمـاء كـروم ومطى الـكؤوس أيدى القـيـان

من عـقـار تميت كل احـتـشـام وتسـر النـدمـان بـالندمـان

وكـــأن المزاج يقـــدح منهـــا شـــرراً فى ســبـائـك العـقـيـان
فاشرب الراح واعص من لام فـيها إنه نـعم عـــدة الفـــتـيـــان

وله أيضًا:

لم أر كـالـشيب وقـاراً يجـتـوى وكـالشبـاب الغـض ظلا يستلب
فـنـازل لم يـبـتـــهج بـقـــربه وذاهب أبقى جـوى حـين ذهب
كـــان الشـــبـــاب لمة أزهى بـهـا وصـاحـبـا حـراً عـزيز المصطحب
إذ أنا أجـرى ســادراً فـى غـيـه لا أعـتب الدهر إذا الـدهر عـتب
أبعـد شـأو اللـهـو فى أجـزائه وأقـصـد الخـود وراء المحـتـجب
وأذعـــر الربـرب عن أطـفـــاله بأعـــوجى دلـفى المنتـــسب

وله أيضًا:

ذاد ورد الـغـى عـن صـــــدره وارعـــوى واللهـــو مـن وطره
وأبـــت إلا الـــبـــكـــاء لـــه ضـحكات الشـيب فى شـعـره
ندمـى أن الشـــبـــاب مـــضى لم أبـلغـــه مـــدى أشـــره
حـــسـرت عـنى بشـاشـتـــه وذوى المحـــمـــود من ثـمـره
ودم أهـدرت مـن رشـــــا لم يـردع عـــقـــلا على هدره

يريد بالدم دم البضع، وكـان يهوى جارية أديبة ظريفة شـاعرة، وكانت تحبـه هو أيضا على قبـحه وأمكنته، فـذاك ما يعنى، وكـان ربما كسب بالمدح فينثر المال فى حجرها، ثم غضبت عليه وأعرضت عنه فقال فيها:

تسئ ولا تستنكر السوء أنها تدل بما تبلوه عندى وتعرف

فمن أين ما استعطفتها لم ترق لى ومن أين ما جربت صبرى يضعف

هذا والمثل العربى المشهور يقول: "أنكح من أعمى" وقال الأصمعى "هما طرفان، ما ذهب من أحدهما زاد فى الآخر" والصحيح أن الأعمى للنقص الحادث فى قدرته على إدراك الجمال، ولقلة غناء الحواس الأخرى، لا يزال يعالج أن يستوفى إدراكه ولهذا يشتد إقباله وتعظم رغبته.

ولم يكن بشار أو من قال: "إن الفؤاد يرى ما لا يرى البصر" و"فبالقلب لا بالعين يبصر ذو اللب" فقد سبقه ابن عباس فيما روى الجاحظ فقال:

أن يأخذ الله من عينى نورهما فى لسانى وسمعى منهما نور

قلبى ذكى، وعقلى غير ذى دخل وفى فمى صارم كالسيف مأثور

وقد قال غيرهما فى هذا المعنى، فمن قول الخريمى:

فا يك عينى خبا نورها فكم قبلها نور عين خبا

فلم يعم قلبى ولكما أرى نور عينى لقلبى سعى

ويعزى إلى المعرى هذا البيت:

سواد العين زاد سواد قلبى ليتفقا على فقهم الأمور

وفى نحو هذا يقول أبو العز مظفر بن إبراهيم الضرير:

قالوا عشقت وأنت أعمى ظبيا كحيل الطرف ألمى

وحلاه ما عاينته فتقول قد شغلتك وهما

وخـــيـــالـه بك فـى المنام فـــمـــا أطـاف ومـــا ألما

مـن أيـن أرسـل لـلـفـــــؤاد وأنت لـم تنظـره، ســهـمـــا

فـــأجـــبـت مـــوســـوى العـــشق انـصـاتـا وفـهـمـا

وقد سقنا هذه الأبيات للاستشهاد لا لجودتها.

ومن أدل ما للعـميان من شعـر على أن المرأة عندهم "أنثى" وأن المرأة تتسرب فى جنسهـا، والإحساس بها لا يكون إلا إحساسـا عاما قول على بن عبد الغنى الحصرى:

قـالت: وهبـتك مـهـجـتى فـخـذ ودع الفـراش ونم على فـخـذى

وثنت إلـى مـثل الـكثـيـب يدى فـأجـبـتـهـا: نعـم الأريكة ذى

وهمـــمـت لكن قـــال لـى أدبى بالله من شـيـطانك اسـتـعـذ

قـالت عـفـفت فـعـفت قلت لهـا مـــذ شـــبت، بـاللذات لـم ألذ

ويروى له البيت الذى زعـموه للمعرى "سواد العـين زاد سواء قلبى". وهو أشبه به.

ويظهـر أن سوء الظـن بعض ما يغـرى به كف البـصـر، حتى يصـبح طباعا. من ذلك ما حكوه أن رجلا أعمى تزوج امرأة دميمة فقالت له: رزقت أحسن الناس وأنت لا تدرى. فكان رده "وأين كان البصراء عنك قلبى؟" فلا عجب إذا رأينا من بشار وأبى الـعلاء وأضرابهما سوء الـظن بالمرأة وقلة الثقة بها والاطمئنان إلى قدرتها على العفة.

وليس هذا كتابا فى العـميان، ولكنا سقنا ما سـقنا لنبين ما هناك من التشابه الذى يوقع فى الروع أن الأمر يجرى مجرى الطباع.

[٤]

وغزل بشار ليس كله نسقا واحدا أو طبقة واحدة، فقد كان يبنى القصائد أحيانا "إعرابية وحشية" كما قال فى صفة شعر له، وأحيانا يبنيها بناء المولدين. ومن أمثلة الضرب الأول قوله:

لعبدة دار ما تكلمنا الدار ... تلوح مغانيها كما لاح أسطار

اسائل أحجارا ونؤيا مهدما ... وكيف يجيب القول نؤى وأحجار

وما كلمتنى دارها إذ سألتها ... وفى كبدى كالنفط شبت به النار

وعند مغانى دارها، لو تكلمت ... لمكتئب بادى الصبابة، أخبار

وقوله:

لا خير فى العيش إن كنا كذا أبدا ... لا نلتقى، وسبيل الملتقى نهج

قالوا حرام تلاقينا فقلت لهم ... ما فى التلاقى ولا فى قلبه حرج

من راقب الناس لم يظفر بحاجته ... وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

أشكو إلى الله هما ما يفارقنى ... وشرعا فى فؤادى الدهر تعتلج

لو كنت تلقين ما نلقى، قسمت لنا ... يومًا به منكم ونبتهج

وقوله:

إذا لاح الصوار[1] ذكرت سلمى ... وأذكرها إذا نفح الصوار

---

(١) الصوار فى الشطر الاول قطيع البقر. وفى الشطر الثانى المسك. يقول أذكرها إذا رأيت يذكرنى أعينهن حسن عينيها، وأما المسك فأذكر به طيب نشرها.

كـــأنـك لم تـزر غـــر الـثنـايا ... ولـم تجـــــمـع هـواك بهـن دار

يروعـــه الســـرار بكـل شيء ... مـخـــافـة أن يكون به الـسـرار

كـــأن فـــؤاده كـــرة تـنزى ... حـذار البـين لـو نفع الحـذار

أقـــول ولـيلـتى تزداد طـولا ... أمـــا لليـل بعـــدهم نهـــار؟

كـأن جـفـونه سـملت بشـوك ... فليس لنومـه فـيـهـا قـرار

جـفت عينى عن التـغـميض حـتى ... كـأن جـفـونهـا عنهـا قـصـار

وقوله:

أبيت أرمـد مـا لم أكـتـحل بكم ... وفى اكتحالى بكم شاف من الرمد

رقت لكم كـبـدى حـتى لو أنكم ... تهـوون ألا أريد الـعـيش لم أرد

كـأن قـلبى إذا ذكـر كم عـرضت ... من سحر هاروت أو ماروت فى عقد

مـا هبت الريح مـن تلقـاء أرضكم ... إلا وجـدت لهـا بردًا على كـبـدى

وقوله:

فـيا عـجـبًـا زينب نفـسى بحـبهـا ... وزانـت هـجـــــرها وتحـلـت

فبينى كمـا بان الشباب الذى مضى ... وكـــانـت يد منـه علىّ فـــولت

وقوله:

هوى صاحبى ريح الشمال إذا جرت ... وأشـــفى لـنفـــسى أن تـهب

ومـــا ذاك إلا أنهـــا حـــين تنتـــهى ... تناهى وفـيـهـا مـن عـبـيـدة طيب

وقوله فى أرجوزته المشهورة:

يا طلل الحى بذات الصمد بالله خير كيف صرت بعدى
واها لأسماء ابنة الأشد قامت تراءى رأتنى وحدى
كالشمس تحت الزبرج المنقد ضنت بخد، وجلت عن خد

ثم انثنت كالنفس المرتد

والضرب الآخر يؤثر فيه البحور الرقيقة المرقصة الهسولة ويبرز المعانى التى تدور على الحس على نحو لم يكن مألوفًا. وقد شاع شعره هذا وتناقله الشبان والفتيات. وهو فى هذا الضرب خريج ابن أبى ربيعة وتلميذه، ولكنه لا يجاريه مجاراة المقلد بل يسلك، بعد التأثر به، طريقه وينفرد به، ويكثر من التصرف. وبعضه ينحو فيه منحى القصص ولكنه يخرج فيه عن الاحتشام مثل قصيدته المشهورة التى يقول فى مطلعها:

قد لامنى فى خليلتى عمر واللوم فى غير كنهه ضجر

وقد مررت بك أبيات كثيرة منها

ومن هذا الضرب أيضًا قوله:

وجوار إذا تحلين لم تدر جوار فى حليها أم ظباء
يتعرضن لى بفاترة الطرف إذا أقبلت ثناها الحياء
وحديث كأنه قطع الروض ففيه الصفراء والحمراء

قوله:

وكأن رجع حديثها قطع الرياض كسين زهرا
وكأن تحت لسانها هاروت ينفث فيه سحرا

وتخال ما جمعت عليه ثيابها ذهبًا وعطرا

وقوله:

وحوراء المدامع من معد كأن حديثها ثمر الجنان

إذا قامت لمشيتها تثنت كأن عظامها من خيزران

وقوله:

أتتني الشمس زائرة ولم تك تبرح الفلكا

تقول وقد خلوت بها تحدث، واكفني يدكا

وقوله:

أنا والله أشتهي سحر عينيك وأخشى مصارع العشاق

وقوله:

سيدى لا تأت فى قمر لحديث، وارقب الدرعا

وتوق الطيب ليلتنا أنه واش إذا سطعا

وقوله:

وشخص طيب الأردان لا تعرف أمثاله

بكى جوعا وشاحاه وقد أشبع خلخاله

أتانا يحمل الشوق وما يحمل أوصاله

فقلت السر كتمانا وقتل السر أبقى له

وقوله:

حسب قلبى ما به من حبها ضاق من كتمانه حتى علن

لا تلم فيها وحسن حبها كل ما قرت به العين حسن

وكان يستطيب الحديث ويجد فيه لذة. ويذكر ذلك فى شعره ويشبهه بقطع الرياض، وباللؤلؤ، وبالوشى "وشى البرود" ويقول:

وثقال الأعجاز قطعن قلبى بحديث لذ، ودهر قصير

قد رضيت القليل منهن، إنى من قليل لواثق بالكثير

وكل عزله حسى واقعى لا يرتقى فيه عن هذه المرتبة ولا يجاوز وصف المحاسن الملموسة أو ما يتخيله وراء اللمس أو السمع مما فاته بذهاب بصره. ولكنه لا يرتفع إلا فى النادر - وعلى سبيل التقليد والمحاكاة - عن نطاق الحس، ولا يزال يجعل المرأة تعرب عن شعورها بقوته وخشونته وبأسه وسطوته، على حين يقابل هو جدها المتخيل فى ذلك، بالسخرية والعبث رغبة منه فى توكيد فحولته واستضعافه للمرأة. وهذا بعض ما يؤدى إليه الشعور بالنقص، فكأنه أراد أن يعتاض القوة والبطش مما يدرك أنه حرمه وان غيره ينعم به.

ولم يكن يعنى بالصدق فى الأعراب عن عاطفته، وإنما كان معنيا بسيرورة الشعر وشهرته، وقد أخذوا عليه قوله:

إن فى بردى جسما ناحلا لو توكأت عليه لا نهدم

لأنه كان مثل الجاموس ضخامة جسم، والحقيقة أن بشارا لم يجعل باله إلا إلى المعنى الخليق أن يحسن وقعه فى نفوس الشبان والنساء. ولهذا كان يؤثر فى عزله النعومة ورقة الحاشية والتطرى. ويسرف فى ذلك حتى خيف

شره على النساء والشبان. ونهاه الخليفة المهدى عن الغزل والتشيب وحبسه قليلا فأمسك وهو كاره وخائف ولكنه كان لا يزال يحتال على القول. تأمل هذه الأبيات:

إن الخليفة قد أبى ... وإذا أبى شيئًا، أبيته

ومخضب رخص البنان ... بكى على، وما بكيته

يا منظرا حسنا رأيته ... من وجه جارية فديته

بعثت إلى تسومنى ... ثوب الشباب وقد طويته

ويشوقنى بيت الحبيب ... إذا غدوت، وأين بيته؟

حال الخليفة دونه ... فصبرت عنه، وما قليته

وإذا لم يكن هذا من الغزل الذى نهى عنه، فلا ندرى ماذا يكون الغزل؟ وقد لهج بشار فى شعره بمن تسمى عبده أو عبيدة. وكل ما هو معروف من أخباره معها أنه كان جالسا ذات يوم فى مجلسه الذى يجلس فيه غدوة ويسميه "البردان" وكان النساء يحضرنه ليتحدثن ويأكلن ويشربن ويسمعن شعره أو يأخذنه لينحن به على الموتى من أهلهن أو غيرهم. فأعجبه كلام إحداهن أو استحلى صوتها فدعا غلامه فقال له "إنى علقت امرأة فإن تكلمت فانظر من هى وأعرفها، فإذا انقضى المجلس وانصرف أهله فاتبعها وكلمها وأعلمها أنى لها محب وأنشدها هذه الأبيات وعرفها إنى قلتها فيها:

"يا قوم أذنى لبعض الحى عاشقة.. الخ"

فأبلغها الغلام فهشت لها. وكانت تزوره بعد ذلك مع نسوة يصحبنها. ثم تنصرف ولا تطعمه فى نفسها. ويظهر أنه كان يزورها كما تزوره. فقد

حكى رواية بشار أنه كان عنده ذات يوم إذ أتته امـرأة فقالت له "يا أبا معاذ. عبدة تقرئك السلام وتقول لك: قد اشتد شوقنا إليك ولم نرك منذ أيام" فقال "عن غير مـقلية والله كان ذاك" ثم قال لروايته "خـذ الرقعة واكتب فيـها ما أقول لك ثم ادفعه إلى الرسول" وأملى عليه:

عـبـد إنـى إليك بـالأشـواق لتـلاق، وكـيف لـى بالتـلاقى

أنا والله اشـتـهـى سـحـر عـينيك وأخـشى مـصـارع العـشـاق

وأهاب الحـرسى مـحـتـسب الجند يلـف البـرئ بالفـسـاق

وليس لبشـار فى غزله صدق يعرف من كـذب، فقد كان الشـعر عنده صناعة وكان همه أن يقوله فى أغـراضه وأن يقال أحسن وأجاد، لا أن يكون صادق السريـرة فيه، ولكن إذا أصدق فإن عـبدة تكون قد أكثـرت من التدلل والصد والجفوة والغضب. فقد قال:

مـسنى من صـدود عـبـدة ضـر فـبنات الـفـؤاد مـا تسـتـقـر

ذاك شيء فى القلب من حب عـبد ة باد، وبـاطن يـسـتـسـر

وقال أيضا:

يا عـبـد إنى قـد ظلمـت واننى مـبـد مـقـالة راغـب أبو راهب

وأتوب مـما تكرهـين لتـقـبـلى والله يقـبل حـسن فـعل الـتـائب

وقال:

يا عـبـد حـبك شـفنى شـفـا والحب داء يـورث الحـتـفـا

والحب يـخـفـيـه المحب لـكى لا يسـتـراب به، ومـا يخـفى

وهذا هو من حذره المعهود.

وقال:

يا عـبـد بالله فـرجى كـربى ... فـقـد برانى وشـفنى نصـبى

وضـقـت ذرعـا بـما كلفـت به ... من حـبكـم، والمحب فى تـعب

فـفـرجى كـربة شـجيت بهـا ... وحـر حـزن فى الصـدر كـالهب

ولا تظنـى مـا أشـتكى لعـبـا ... هيـهـات قـد جل ذاعن الـلعب

فهى كانت تعرفه معرفته ولا تراه إلا عابثا

وقال:

يا عـبـد زورينى تكن منة ... لـله عـنـدى يـوم ألـقـاك

والله ثم الله فـاسـتـقـينى ... إنى لأرجـوك وأخـشـاك

يا عـبـد إنى هالك مـدنف ... إن لـم أذق بـرد ثـنـايـاك

فـلا تردى عـاشـقًـا مـدنفًـا ... يرضـى بهـذا القـدر من ذاك

وما أشبه هذا بحكاية العنكبوت والذبابة!

وقال:

يا عـبـد قـد طـال فـأنعـمى ... واشـفى فـؤاد فـتى يهـيم مـتيم

يا عـبـد هل للـقـاء من سـبب ... أولا، فـأدعـو باويل والحـرب

يا عـبـد هل لـى منكم من عـائد ... أم هل لديك صلاح قلب فاسد

وقال:

يا عـبـد حـبى عن قـريب ... وتـأملى عـيـن الـرقـيـب

وارعى ودادى غـائبًـا ... فلقـد رعـيـتك فى المغـيب

أشـكـو إلـيـك وإنمـا ... يشكو المحب إلى الحـبـيب

غـرضى إليك من الهـوى ... غـرض المريض إلى الطبـيب

وقال:

يا عـبـد يا جـافـيـة قـاطعـه ... أمـا رحـمـت المقلة الـدامـعـة

يا عـبـد خـافـى الله فى عـاشق ... يهـواك حـتى تقع الـواقـعـة

عـبـد إنى قـد اعـترفـت بذنبى ... فاغـفرى، واعـركى خطاى بجنب

عبد لا صبر لى ولست - فمهلا - ... قـائلا قـد عـتبت فى غـيـر عـتب

وحسبنا هذا القدر. وإنما استكثرنا لنريك فرق ما بين شعره فيمن تسمى عبده وشعره فى سواها مثل أميمة، وأمامه، وفاطمة، . الخ.

وهى إحدى اثنتين: أن تكون عبدة هذه امـرأة حقيقـية صبا إليـها قلم تمكنه منها، فألح عليها، ولـج فى التودد إليها، وهى لا تزداد على التودد إلا دلالا. أو أن تكون من محلوقات الخيال، أو اسمًـا استعاره وأدار عليه القول ليشتهر بذاك، تشبهًا بكثير وجميل وقيس وأضرابهم من هذه الطبقة ولنا العذر إذا اجنحنا إلى الشك. فمـا نعرف من عبـدة أو عبيدة هذه إلا أنهـا من نساء البصرة، وإنهـا كانت تحضر مجلسـه فيمن يحضرنه غـيرها. ثم لا شيء بعد ذلك إلا شعره فيها.

وشعره فيها يخلو من ذلك المجون الذى اشتهر به فى تشبيه بالأخريات، فما جاوز حد التصريح بأنه هالك إذا لم يذق برد ثناياها. ويخيل إلينا أنه بناه هذا البناء تقليداً لمن سبقوه من شعراء الغزل.

* * *